مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أفسس ٤: ٧-١٣)

يا إخوةُ لكلِّ واحدٍ منَّا أُعطيتِ النِّعمةُ على مقدارِ موهبةِ المسيح* فلذلك يقول لمَّا صعِد إلى العُلى سبى سبياً وأعطى الناس عطايا* فكونه صعِدَ هل هو إلاَّ أنَّه نزلَ أولاً إلى أسافلِ الأرض* فذاك الذي نزلَ هو الذي صعِدَ أيضاً فوق السموات كلِّها ليملأَ كلَّ شيءٍ* وهو قد أعطى أن يكونَ البعضُ رُسلاً والبعضُ أنبياءَ والبعضُ مبشِّرينَ والبعضُ رعاةً ومعلِّمين* لأجلِ تكميلِ القديسينَ ولعَملِ الخدمةِ وبُنيانِ جسدِ المسيح* إلى أن ننتهي جميعُنا إلى وحدةِ الإيمانِ ومعرفةِ ابنِ اللهِ، إلى إنسانٍ كاملٍ إلى مقدارِ قامةِ مِلءِ المسيح.

العدد ٢/ ٢٠١١

الأحد ٩ كانون الثاني

الأحد بعد الظهور الإلهي

تذكار القديس بوليفكتوس الشهيد

اللحن الثامن

إنجيل السَحَر الحادي عشر

السابق

لعب النبي يوحنا السابق دوراً كبيراً في التحضير لبشارة الرب يسوع، وقد كان واعياً لدوره هذا وسعى جهده حتى يقبل الناس ما كان يعلّمهم إيّاه وهو أنّ الرب يسوع هو المسيح المنتظر. وعلى الرغم من سعيه هذا، وبسبب من شخصيته، ضلّ الكثير من المؤمنين باعتبارهم يوحنا المعمدان المسيح المنتظر، وقد واجه الإنجيلي يوحنا هذا الوضع الخطير في الإصحاح الأول من إنجيله، حين شدّد على أنّ يوحنا المعمدان لم يكن النور ولكنّه أتى ليشهد للنور الذي هو كلمة الله المتجسد (١: ٧-٨).

في الأحد الواقع بعد عيد الظهور الإلهي (الغطاس) نقرأ فصلاً من إنجيل متى (٤: ١٢-١٧) حين يتابع الرب يسوع، بعد القبض على يوحنا المعمدان، البشارة التي بدأها هذا الأخير: «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات» (متى ٣: ١-٢).

كان يوحنا المعمدان آخر الأنبياء الذين أعلنوا للناس مجيء المخلّص، المسيح المنتظر الذي «يخلّص شعبه من خطاياهم» (متى ١: ٢١)، وقد شدّد الإنجيلي متى على أنّ النبوءات تحققت في يسوع المسيح: «لكي يتمّ ما قيل من الرب بالنبي القائل: هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعونه عمّانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (متى ١: ٢٢)، «لكي يتم ما قيل بالأنبياء أنه يدعى ناصرياً» (٢: ٢٢- ٢٣)، «لكي يتمّ ما قيل بإشعياء النبي القائل: «أرض زبولون وأرض نفتاليم طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم، الشعب الجالس في ظلمةٍ أبصر نوراً عظيماً، والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور» (متى ٤: ١٤-١٦). أمّا تسمية النبي يوحنا المعمدان بالسابق فهي ناتجة عن كون النبي يوحنا سبق مباشرة مجيء الرب يسوع بالجسد. من هنا فإنّ الأنبياء الذين أعلنوا مجيء الرب هم «سابقون» كالنبي الياس لأنّه «السابق الثاني لحضور المسيح».

بهذا المعنى كلّ مَن يحضّر لمجيء المسيح إلى شخص ما أو إلى جماعة ما هو «سابق» للرب يسوع. لذلك فإنّ الرسل كانوا بالنسبة للذين نقلوا

الإنجيل

(متى ٤: ١٢–١٧)

في ذلك الزمان لمَّا سمعَ يسوعُ أنَّ يوحنا قد أُسلِمَ انصرفَ إلى الجليلِ* وتركَ الناصرةَ وجاءَ فسكنَ في كَفْرَناحوم التي على شاطئِ البحرِ في تخومِ زَبولونَ ونفتاليمَ* ليتمَّ ما قيلَ بإشعياءَ النبي القائل: أرضُ زبولونَ وأرضُ نفتاليم طريقُ البحرِ عَبْرَ الأردنِ جليلُ الأمم* الشعبُ الجالسُ في الظلمةِ أبصرَ نوراً عظيماً والجالسون في بُقعةِ الموتِ وظلالهِ أشرقَ عليهم نورٌ* ومنذئذٍ ابتدأَ يسوعُ يكرزُ ويقولُ: توبوا، فقدِ اقتربَ ملكوتُ السموات.

تأمل

«لكل واحد منا أعطيت النعمة على مقدار موهبة المسيح» (أف ٤: ٧).

تصبح الحياة بالمسيح واقعاً لا في السماء فحسب بل هنا على الأرض للمسيحيين الذين يعيشون فيه بالطبع، ويعملون وفقاً لمتطلبات الحياة إليهم البشرى بالخلاص «سابقين»، لأنهم نقلوا إلى سامعيهم الرب يسوع المسيح نفسه محقّق هذا الخلاص، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى يظهر لقارئ الكتاب المقدس أنّ هناك في أغلب الأحيان مَن يمهد الطريق أمام الرب، أكان ذلك بالكلام أو حتى بالإشارة. وكأنّ الرب بحاجة للإنسان ليصل إلى كلّ إنسان، وربما كان ذلك عائداً إلى أنّ الرب يريد أن يشاركنا في عمله الخلاصي من خلال البشارة بهذا الخلاص.

من الملاحظ أيضاً أنّ القديس يوحنا السابق كان مدركاً أنّ دوره ينتهي عند الرب يسوع: «أجاب يوحنا وقال لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أعطي من السماء. أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت لست المسيح بل أنا مرسلٌ أمامه. مَن له العروس فهو العريس، وأمّا صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذاً فرحي هذا قد كمل. ينبغي أنّ ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يو ٣: ٢٧–٣٠). مهمته تقوم إذاً على تمهيد السبيل أمام الرب يسوع ثم يتنحى جانباً فرحاً بأنّ الناس قبلوا المسيح من خلال بشارته.

الكتاب المقدس عرّف عن النبي يوحنا بأنه «صوت صارخ في البرية أعدّوا طريق الرب، إصنعوا سبله مستقيمة» (متى٣: ٣)، وهذا يبيّن لنا أنّ يوحنا لم يكن ينتظر سماع الناس لكلامه، أي إنه لم يكن يعرف أن كلامه سيلقى آذاناً صاغية. كان «صوت صارخ في البرية». ولكنه كباقي الأنبياء كان يدرك أنّ كلمة الله لا بد أن تفعل فعلها في قلوب البشر: «هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إليّ فارغة بل تعمل ما سررت به وتنجح في ما أرسلتها له» (إش ٥٥: ١١–١٢). لذلك فإنّه لا ينتظر ثمر عمله البشاري ولا ينتظر مكافأة بشرية، مع العلم أنّه واثق بقدرة كلمة الله على تحقيق مرادها وهو عالم أنّ مكافأته تأتي من عند الله، وهي رحمة الله له.

هذا ما فهمه الرسول بولس ونقله لنا. فالمبشّر هو كالحارث أو الزارع الذي يحضّر الأرض ويبذرها ويترك الأمر بعد ذلك للرب الذي ينمّي، ويفعل ذلك كلّه على الرجاء، أي على رجاء أن تفعل كلمة الله فعلها: «لأنه ينبغي أن يحرث على رجاءٍ» (١ كور ٩:١٠)، «ليس الغارس بشيء ولا الساقي بل الله الذي ينمّي» (١ كور ٣: ٧).

كلّ هذا يعلّمنا أن نكون على صورة السابق نشهد للمسيح ونمهّد السبيل أمامه ليصل إلى قلوب سامعيه فنفرح بقبولهم له منتظرين رحمته وخلاصه.

استقبال النور الظاهر

في الأحد الأول بعد الظهور الإلهي تتلو الكنيسة على مسامعنا النص الإنجيلي الذي يروي غياب المصباح وظهور النور، غروب النجم وبزوغ الشمس، رحيل السابق ومجيء المسيح.

يقول الرب يسوع «أنا نور العالم. مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو ٨: ١٢) ليعني بذلك أنّه «حياة العالم»: «في البدء كان الكلمة... فيه كانت الحياة والحياة نور الناس» (يو ١: ١ و٤). ولذلك سُمّي عيد الظهور الإلهي عيد

السامية. الحياة في المسيح ممكنة ومحققة لذلك يحثنا الرسول بولس على السير «في حياة جديدة» (رو ٦: ٤). من الضروري أن يشرح ما يجب أن يفعله المسيحي ليحظى بالوحدة مع المسيح التي لا يمكن أن نجد لها تحديداً كاملاً ودقيقاً. يجب أن يتضافر عاملان لتحقيق هذه الوحدة العظيمة الباهرة: النعمة الإلهية العاملة أبداً وتَقَبُّل الإنسان واجتهاده. ما هو المطلوب من الإنسان؟ أن يتقبل النعمة وأن يُخضع إرادته لها والاّ يشي بالكنز الذي أئتمن عليه والاّ يطفئ سراج النشاط الذي أشعلته في روحه وألاّ يفعل شيئاً من تلك الأمور المخالفة للحياة بالمسيح، والتي تقود إلى الذبول الروحي والموت. ومصلحتنا الحقيقية تفرض علينا ألاّ ندير سيف الخطيئة ضد نفوسنا وألاّ نهرب من السعادة الروحية وألاّ نرمي إكليل المسيح عن رؤوسنا. فالمسيح الحاضر دوماً في أرواحنا يغرس

الأنوار. والترانيم تقول: «اليوم ظهرتَ للمسكونة يا رب، ونورك قد ارتسم علينا». بذلك تتحقّق النبوءة التي سمعناها في النص الإنجيلي اليوم: «الشعب الجالس في بقعة الموت وظلمته أشرق عليه نورٌ».

لكن النور عندما ظهر للعالم لم يقبله العالم كله. وأحبّ الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.

استقبال النور له شرطان: الأول ظهوره،، وهذا قد تمّ، والثاني رؤيتنا له. والتطويبة الإنجيلية واضحة أنّ أنقياء القلوب يعاينون الله (متى ٥: ٨). غالباً ما تكون أهواؤنا ورغباتنا الدنيوية المادية غشاءً يحجب النور الظاهر. أهواؤنا تجعلنا نحوّل نظرنا عنه إلى العتمة حيث تعيش بعض الرغبات، لأنّ النور يؤذيها.

النور يكشف لنا عُرْينا، يضع أمامنا صورة ملموسة لحقارتنا وضعفنا، كما يكشف لنا خفايا أنفسنا. هذا الإختبار مؤلم لأنه يشكّل مفترقاً خطراً في حياتنا. إنه يضعنا على الحدّ الفاصل بين الجهاد في سبيل تنقية الذات بواسطة النعمة الإلهية أو الإستسلام للواقع والاستمرار في حالة الخطيئة.

خيار إبقاء النفس العارية في النور أو حجبها عن النور خيار مصيري بكل ما في الكلمة من معنى. إن احتجابنا عن النور هو استسلام يولّد فينا شعوراً بالمذلة (والمذلة ليست التواضع) وشيئاً فشيئاً سوف يتحوّل شعورنا بالمذلة إلى قساوة في نفسنا تؤدي إلى تحجّرها بنتيجة الفشل واليأس من تحقيق أي نموّ روحي. عندما نيأس من أنفسنا سنشبه مريضاً لا يستطيع الطب معالجته فيكون كمحكوم عليه بالموت.

في المقابل، إن اختيارنا التنقية والتوبة يوازي تحريك السكين في الجرح، لما فيه من صعوبة وما يولّده فينا من آلام مبرحة. تتطلب التوبة قيام حرب داخلية بين الأنا والذات. صعوبة هذا الخيار تكمن في أن حسابات الربح والخسارة بصورة عقلية ومنطقية لا تؤدي إلى نتيجة. فالعقل يستطيع أن يخدع النفس. هنا يكون تحكيم العقل بلا فائدة، لأنه سيضع أمامنا معطيات ووقائع تسلب قدرتنا على الخيار الحرّ، باستعماله قوة الإقناع التي تجعلنا عبيداً لظلمة المنطق الذي يغلبنا. مثال على ذلك: لنفترض أن خطيئتي هي السرقة. سوف يقول لي عقلي: كيف ستستطيع مواجهة ظروف الدهر وحرمان نفسك وعائلتك من الترف الذي توفّره السرقة لك؟ كيف ستومّن طبابتك وطبابة مَن تحب إن لم تكن صاحب إمكانات مادية كافية عند الضرورة؟ هل تلاحظون كيف أن العقل يضعنا عند الحد الفاصل بين الحياة والموت؟ الخيار هنا يوازي بين اختيار موت النفس أو موت الجسد. ولأني اشعر بجسدي وأعرفه فمن الطبيعي أن أجعله أولوية على نفسي التي لا اشعر بها ولا أعرفها كمعرفتي لجسدي.

قد يطرح أمامنا العقل فرضيات أدهى. ولنفترض هنا أن الخطيئة هي شهوة الجسد. سوف يسألني العقل سؤالاً بسيطاً قد يكبّلني عن الحراك. فيقول لي مثلاً أنت تعرف أن التغلب على هذه الخطيئة يتطلب إرادة قوية وأنت لا تملكها، فكيف تحارب وأنت لا تملك الشجاعة والقوة والسلاح؟

«الحياة الجديدة» فيها باستمرار وبطريقة لا يعبّر عنها. إنه دائماً معنا ويساعدنا على تطوير حياتنا الروحية التي أعطاها لنا بالتضحية التي قدّمها على الصليب. فالمسيح حاضر لا كما كان على الأرض، ولا كما كان يتصل بنا على الأرض، بل بطريقة أكثر كمالاً نصبح بواسطتها أعضاءه ونؤلّف معه جسداً وروحاً واحداً. إن تنازله إلى هذا القدر يعبر عن رحمته التي لا حدّ لها. لقد أحب رجالاً لا يستحقون محبّته، رجالاً خطأة، أعداء، وملأهم بنعمته عندما رآهم يسلكون طريق العودة التائبة. ان وحدة المسيح السرية مع مختاريه لا يمكن أن يعبَّر عنها وكذلك الطريقة التي تحلّ بواسطتها في النفوس، نفوس أولئك الذين أحبّهم وأعطاهم نعمته وموهبته كما يليق بالذي يريد الكائنات العجيبة العظيمة.

القديس نقولا كاباسيلاس

أسارع إلى القول أن منطق العقل وفرضياته صحيحة وحقيقية ولكنها جزء من الحقيقة وليست كل الحقيقة لأنها لا تأخذ كل المعطيات الموضوعية بعين الإعتبار. ماذا لو خسرت في البورصة المال الذي سرقته وبعد ذلك اصبت بجلطة في الرأس؟ كيف أتعالج؟ كيف أعيش بدون ما يكفيني من المال؟

أما في موضوع قوة الإرادة فعلى المسيحي أن يسأل هل إنّ قوّة إرادته هي وحدها القوة الموضوعة بتصرّفه؟ ألسنا نقول عندما نصلّي: يا رب أنت قوتي والرب راعي فلا أخشى الشر. قد تقولون هذا صحيح ونحن نؤمن بأن الله سوف يعطينا القوة للمواجهة وسوف يبعد عنا الشر ولكن الصعوبة هي في ترك مطارحنا العتيقة، الصعوبة في تغيير نمط حياتنا، في الإقلاع عما تعوّدنا عليه من مساوئ لدرجة أننا استسهلناه فصار أمراً عادياً بالنسبة لنا وجزءاً من كياننا.

يقول النبي الذي سمعناه اليوم: «الشعب الجالس في بقعة الموت وظلمته أشرق عليه نورٌ». لاحظوا أنه استعمل عبارة «الجالس». الصورة هنا رائعة لأنك إن كنت في الظلمة سيكون تحركك محفوفاً بخطر الإرتطام بما هو حولك. الظلمة تجعلك كسيحاً مقعداً. ستصبح كالأعمى لأنك لن تجد طريقاً لتسلكه وتخرج من مطارحك المظلمة. خروجنا من الظلمة وابتعادنا عن نتانة حقارتنا يتطلب حركة والحركة لا تكون إلا في النور والنور يبهر أبصارنا كما أنه يكشف عرينا وعرينا يخجلنا. هذه الحلقة المفرغة لا تكسرها إلا غزارة النعمة. بالنعمة نقبل عرينا، لأن الله يسترنا برحمته. بالنعمة يشبه عرينا حبة الحنطة التي تنكسر قشرتها عندما تنغرس في التراب وتغمرها الرطوبة. في تلك اللحظة يُنبت العُري حياة فتصير الحبة شجرة طيبة الثمر.

لا أريد زيادة الصعوبات عليكم حتى لا تيأسوا من أنفسكم إذا ما اخترتم مواجهتها. إن موت إنساننا العتيق يصيبنا بصدمة عاطفية حقيقية. نحن نحزن على موت الأحبة وفراقهم أفلا نحزن على موت أنفسنا؟ أفلا تضطرب قلوبنا؟ نعم. ولكن الله الذي يعطينا القوّة لنواجه عندما نخوض الحرب اللامنظورة، سوف يلمس بيده المملوءة قوة وحناناً قلوبنا المضطربة ويهدئ روعنا ويسكّن عواصف هواجسنا وقلقنا ويحملنا برفق وحنان إلى أرض جديدة وسماء جديدة ويغمرنا بعطف وحنان لم نتذوق مثيلهما من قبل.

سوف يروي ظمأنا من الماء الحي ويصبح رفيق دربنا. هل سنقبله بدون خوف أو رعدة؟ ألن نقول له توقف ولا تقترب كثيراً مني يا رب لأنني رجل خاطئ لا أستطيع تحمّل عظمة لاهوتك، على غرار ما فعل بطرس عندما رأى يسوع على شاطئ البحيرة بعد صيده السمك الوفير؟ يومها عندما سمع بطرس من التلميذ الآخر أن مَن عاينه هو يسوع، إئتزر بثوبه (لأنه كان عرياناً) وطرح نفسه في البحر، في بحر محبة الله التي لا تنضب.

طوبى للنفس التي تعاين الرب وتتذوق قوة حنانه لأنه في خضم حزنها سيتفجر فيها الدهش والفرح الغامر حياة جديدة وتمتمات تسبيح.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb